سُورَةُ العَنكَبُوتِ

مكية وهي تسع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ ﴾ .

﴿الٓمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحسبانُ: الظَّن، نزلت في قوم من المؤمنين، كان كفار مكة يؤذونهم ويعذبونهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، فتداركهم الله بالتسلية بهذه الآية، وحكمها عام في جميع البشر ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؟ أي أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة، بقولهم ﴿آمَنَّا﴾ والمعنى: إنكار الحسبان المذكور، وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف، كالمهاجرة والمجاهدة، ورفض ما تشتهيه النفس، وفنون المصائب في الأنفس والأموال، ليتميّز المخلص من المنافق، ويجازيهم بحسب أعمالهم.

﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ .

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾ أي اختبرنا ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ فالابتلاء سُنَّةٌ قديمة، مبنيّة على الحِكم والمصالح، جاريةٌ بين الأمم كلها فإن الأمم الماضية، قد

أصابها من ضروب الفتن والمحن، ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا فمنهم من يوضع المنشار على رأسه، فيفرق نصفين، ومنهم من يُمشط بأمشاط الحديد، ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في قولهم آمنا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ في ذلك، أي فوالله ليميزنَّ الله بين الصادق والكاذب، بين الذين صدقوا في الإيمان، والذين هم كاذبون فيه، ويرتّب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفر والمعاصي، فإن العمل يعمُّ أفعال القلوب، والجوارح ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾؟ أي يفوتونا، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوىء أعمالهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الذي يحكمونه!؟ فإنه سبحانه يعذب ويثيب، بحكم الوعد والإيعاد، والإمهال لا يفضي إلى الإهمال.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي يتوقع ملاقاة جزائه، ثواباً أو عقاباً، وملاقاة حكمه يوم القيامة، والمشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي الوقت المضروب للقائه ﴿لَـَٔاتٍ﴾ لا محالة والجواب محذوف، أي فليختر من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم الظاهرة الباطنة، وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى.

﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ في طاعته تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ لعود منفعتها إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي لا حاجة له إلى طاعتهم، وإنما أَمَرهم بمجاهدة الهوى والشيطان لِمنفعتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي نمحو الكفر بالإيمان، والمعاصي بالتوبة ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام، والآية تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان، لأن تكفير السيئات معلّق عليها، وهي ثمرة الإيمان، ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك أن عروقها، وأغصانها منها، والماء الذي يجري عليها والتراب حواليها غير داخل فيها، لكنَّ الثمرة لا تحصل إلا بهما.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ أي أمرناه بأن يفعل بهما ما يحسن من المعاملات، فإن «وصّى» تجري مجرى «أمر» معنىً وتصرفاً، يقال: وصَّيْتُ فلاناً بكذا، أي أمرته بتعهده ومراعاته ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي بألوهيته، عبّر عن نفيها بنفي العلم بها، للإيذان بأن ما لا يُعلم صحته، لا يجوز اتباعه، وإن لم يعلم بطلانه، فكيف بما علم بطلانه؟ ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ في ذلك، فإنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي مرجع من آمن منكم، ومن أشرك، ومن برّوا والدليه ومن عقّ ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بعمله إن خيراً فخير،

وإن شراً فشر، وفيه لطيفة، وهي أن الله تعالى يقول: لا تظنوا أني غائب عنكم، بل أنا حاضر معكم، وأعلم ما تفعلون، فأنبئكم بجميعه. روي أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لمَّا أسلم، وكان باراً بأبويه، قالت له أمه: ما هذا الذي أحدثت؟ والله لا آكل، ولا أشرب، حتى ترجع إلى ما كنت عليه، ولبثت ثلاثة أيام، فقال لها: «يا أماه والله لو كانت لك مائة نَفْس، فخرجت نَفْساً نَفْساً، لا أترك ديني لشيء أبداً، فإن شئتِ فكلي، وإن شئت فدعي، فلما يئست منه أكلت وشربت»[1] ففيه نزلت هذه الآية الكريمة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح، وهو منتهى درجات المؤمنين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في سبيله بأن عذبهم الكفرة على الإيمان ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ما يصيبه من أذيتهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الشدة والهول، فيرتدُّ عن الدين، ولا يصبر عليه، وما علمَ أنَّ تعذيب الناس لا يكون مديداً، وعذابُ الله مديد، وأنَّ المشقة إذا كانت

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١٩٥ وصفوة التفاسير ٢/٤٥١ وقد روى الترمذي قصة سعد في سننه ٥/٣١٩ وقال: حديث حسن صحيح، وفيه قال: «فكانوا إذا أرادوا أن يُطْعموها، شَجَروا فَاها ـ أي فتحوا فمه ـ فنزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بَوالِدَيهِ حُسْناً...﴾ الآية.

مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضم اللام ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ أي متابعين لكم في الدين، فأشركونا في المغنم، وهم ناس من ضعفة المسلمين، كانوا إذا مسَّهم أذى الكفار وافقوهم على الضلال، وكانوا يكتمونه من المسلمين، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ أي بأعلم منهم بما في صدورهم، من الإخلاص والنفاق.

﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾.

﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالإخلاص ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أي ليجزيهم بما لهم من الإيمان والنفاق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة، أي قالوا مخاطبين لهم ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي اسلكوا طريقنا التي نسلكها في الدين ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أي إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها، وهذا قول صناديد قريش لمن آمن، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾ «مِنْ» الأولى للتبيين، والثانية مزيدة، والتقدير وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم التي التزموا أن يحملوها كلها ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أخبروا بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوهم به.

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾.

﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة، من المضرة لأنفسهم، بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم، والتعبير عن الخطايا بالأثقال، للإيذان بغاية ثقلها، وكونها فادحة، واللامُ جواب قسم محذوف، أي وبالله ليحملنَّ أثقال أنفسهم كاملة، وأثقالاً أخرى مع أثقالهم، لأنهم تسبَّبوا بالإضلال، من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شيء، وفي الحديث الشريف «من سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرُها، ووزرُ من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[(١)] ﴿ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ سؤال تقريع ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ أي يختلقون في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل، التي من جملتها كذبهم هذا.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾ شروع في بيان فتنة الأنبياء عليهم السلام بأذية أممهم، إثر بيان، فتنة المؤمنين بأذية الكفار، تأكيداً للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا، بمجرد الإيمان بلا ابتلاء، أي ولقد بعثنا رسولنا نوحاً إلى قومه الضالين ﴿ فَلَبِثَ ﴾ أي أقام ومكث ﴿ فِيهِمۡ ﴾ أي فيما بينهم ﴿ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله جلَّ وعلا كأنه جلَّ وعلا قال: مكث بينهم تسعمائة وخمسين سنة، وهذه المدة الطويلة التي عاشها كانت معجزة له عليه السلام، لأن البشر لا يعيشون مثلها، ولمَّا أدركته الوفاةُ، قيل له: كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ ﴾ عقيب نهاية المدة المذكورة، والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشيء، على كثرة

(١) هذا طرف من حديث طويل في قصة الأعراب الفقراء مجتابي النمار، وحث النبي ﷺ لأصحابه على الصدقة، وقد أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٦٧٤ فانظره بكماله هناك.

وشدة، من المسيل، والريح، وقد غلب على طوفان الماء ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي والحال أنهم مستمرون على الظلم، لم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه، وكانوا ثمانين، نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي الحادثة ﴿ءَايَةً﴾ أي عبرة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتعقلون بها.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب بالعطف على نوحاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي أرسلناه حين تكامل رشدُه، وترقى من مرتبة الكمال، إلى مرتبة التكميل، حيث تصدَّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أن تشركوا به شيئاً ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي مما أنتم عليه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر، وتميِّزون ما هو نافع ممَّا هو ضار.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي إنما تعبدون من دونه تعالى أوثاناً، هي في نفسها تماثيل وصور مصنوعة لكم، ليس فيها وصف غير ذلك ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تضر ولا تنفع ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ أي لا تقدر على أن ترزقكم شيئاً من الرزق ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ كله فإنه هو الرزّاق ذو القوة المتين ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ على نعمائه، متوسلين إلى مطالبكم بعبادته، مقيّدين لها بالشكر، لأنه المنعم عليكم بالرزق ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي بالموت، لا إلى غيره.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أي وإن تكذبوني فيما أخبرتكم من البعث ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ تعليل للجواب، أي فلا تضرونني بتكذيبكم، فإن من قبلكم من الأمم قد كذبوا الرسل، فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم، حيث تسبّبوا لحلول العذاب بهم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، وليس عليه هداية الناس.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ الواو للعطف على مقدّر، أي ألم ينظروا ويعلموا، علماً جارياً مجرى الرؤية في الظهور، كيفية خلق الله تعالى ابتداء للبشر من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ أي ثم يردُّه إلى الوجود بعد الفناء، ليستدلوا بالخلق الأول على الإعادة في الحشر؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من الإعادة ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ إذ لا يفتقر إلى شيء، فإن من نَحتَ حجارات، ووضع شيئاً بجنب شيء ففرّقها ثم أراد إعادتها، فإن إعادتها أمرٌ يسيرٌ عليه .

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ﴾ أي سيروا فيها فانظروا كيف بدأ الله الخلق، أي كيف خلقهم ابتداءً على أطوار مختلفة، وطبائع متغايرة، مع اختلاف الأشكال، والصور، والألوان، ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأة أخرى، كما بدأهم يعيدهم، والتعبيرُ عن الإعادة بالنشأة الآخرة، المشعرة بكون البدء نشأة أولى، للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى، لا فرق بينهما إلاّ بالأولية، والآخريّة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبله، أي لا يعجزه شيء، فهو المحيي المميت، القادر القاهر، الذي يقول للشيء كنْ فيكون.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ يُعَذِّبُ ﴾ أي بعد النشأة الآخرة ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يعذّبه، وهم المنكرون للبعث ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ أن يرحمه وهم المصدقون بلقاء الله ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي تردُّون أو تُرجعون للحساب والجزاء لا إلى غيره.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه عليكم ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ ﴾ أي في التواري في الأرض، أو بالتحصن في السماء، التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقي فيها؟ كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ

أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾[1] ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم بما يصيبكم من بلاء.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي بالبعث والنشور الذي تنطق به تلك الآيات ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة، فإنهم لما أشركوا، أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة، وصيغة الماضي للدلالة على تحقيقه ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالكفر وباليأس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يُقادر قدرُه بكفرهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ليس المراد أنه لم يصدر عنهم إلا هذه المقالة، كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم، بل إن ذلك هو الذي استقرَّ عليه جوابهم، بعد الجدال والمحاورة، وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى، والقائلون هم الرؤساء أي قالوا لأتباعهم ذلك ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فألقوه في النار، فأنجاه الله تعالى منها، بأن جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم، كما بيَّنه تعالى في موطن آخر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في إنجائه منها ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عجيبة، منها حفظُه تعالى من حرِّها، وإخمادها في زمان يسير، وإنشاء

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٣٣.

روضةٍ في مكانها ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدِّقون بكمال قدرة الله، وخصَّ المؤمنين بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بالتأمل فيها، وأما من عداهم فهم عنها غافلون.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي في هذه الحياة الدنيا، على عبادتها ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تنقلب الأمور، فتصبح المودة تباغضاً ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي الإنسان يكفر بالأوثان، ويتبرأ القادة من الأتباع ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم﴾ أي يلعن الأتباعُ ﴿بَعْضًا﴾ يعني الرؤساء ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي صدَّقه في جميع مقالاته، وأول من آمن له لوط حين رأى النار لم تُحرقه، وهو ابن أخيه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي من قومي ومن سواد الكوفة ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إلى حيث أمرني ربي، يعني توجهي إلى الله تعالى لا إلى الجهة. ولمَّا بالغ عليه السلام في الإرشاد، ولم يهتد قومُه، وحصل اليأس، وجبتْ المهاجرةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة ومصلحة. روي أنه عليه السلام هاجر مع لوط وامرأته سارة ابنة عمه إلى حَرَّان، ثم منها إلى فلسطين، وهنالك استوطن فيها.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ولداً من عجوز عاقر، ولذا لم يذكر إسماعيل ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ ﴾ فكثر منهم الأنبياء ﴿ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي جنس الكتاب المتناول للكتب الأربعة ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ ﴾ بمقابلة هجرته إلى الله ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ بإعطاء الولد، واستمرار النبوة فيهم، والثناء عليه إلى آخر الدهر ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي الكاملين في الصلاح. ولمَّا أتى إبراهيم عليه السلام بالتوحيد، دفع الله تعالى عنه عذاب الدنيا وهو الإحراق بالنار، وأعطاه الثواب العاجل جزاء صبره على الابتلاء، وكان وحيداً فبدَّل الله وحدته بالكثرة، حتى مُلِئت الدنيا من ذريته.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَلُوطًا ﴾ عطف على إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ وهي اللواطة ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بيانٌ مقرّرٌ لكمال قبحها، أي ما فعل هذه الفعلة القبيحة أحد من الخلق قبلكم، لأنها تشمئز منها الطباع، وتنفر منها النفوس الزكية حتى البهائم، لا تتعاطاها.

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي تتعرضون للسابلة بالفاحشة حيث روي أنهم كانوا كثيراً ما يفعلون بالغرباء ذلك، ويقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي في مجلسكم الجامع لأصحابكم، والنادي مجلس القوم، ولا يقال فيه ذلك إلا والقوم مجتمعون فيه، وإذا تفرقوا زال عنه هذا الاسم ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجماع، وحلِّ الإزار، والسباب، والفحش في المزاح، وغيرها مما لا خير فيه، من الأفاعيل المنكرة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فما كان جوابهم إلا هذه الكلمة، أي لم يصدر عنهم في هذه المرة، إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء: ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً!!.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة، ولمّا يئس عليه السلام من صلاحهم، طلب النصرة، ولأنهم كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه، وصَفَهم بالمفسدين، إشعاراً بأنهم أحقاء بأن يُعجَّل لهم العذاب، وما طلبَ نبيٌّ من الأنبياء هلاك قوم، إلا إذا علم أن موتهم خير من وجودهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَيَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بالولد ﴿قَالُوٓاْ﴾ لإبراهيم ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي قرية سدوم، ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ

﴿ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم والفساد، وحين ذكروا البشرى ما علّلوا، وعلّلوا الإهلاك، لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ فكيف تهلكونها؟ ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط فيها، وأنهم مهتمون بشأنه وشأن أهله، حسبما ينبيء عنه تصدير الوعد بالقَسَم، أي والله لننجّينه ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي الهالكين، الباقين في العذاب، لأنها كانت كافرة.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ الملائكة المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي اعتراه المساءة بسببهم، مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا﴾أي ضاق صدره بشأنهم، لأنهم حسان الوجوه، جاؤوه بصورة أضياف ﴿وَقَالُواْ﴾ أي المرسلون حينما شاهدوا عليه مخايل التضجر من جهتهم ﴿لَا تَخَفۡ﴾ من قومك علينا ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ مما يصيبهم من العذاب ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي من الهالكين الباقين في العذاب.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾.

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً مؤلماً من السماء، سُمّي بذلك لأنه يُهلك المعذَّب، من قولهم: ارتجز البعيرُ إذا ارتعش واضطرب ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي من القرية ﴿ءَايَةً بَيِّنَةً﴾ هي قصتها العجيبة، وآثار ديارهم الخربة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في الاعتبار.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وارسلنا إلى مدين نبياً كريماً، هو شعيب عليه السلام ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تسعوا بالإفساد في الأرض، بأنواع البغي والعدوان.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الرجفة: الزلزلة الشديدة وفي سورة هود عليه السلام: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام، فإنها موجبة للرجفة بسبب تموجات الهواء، وما يجاورها من الأرض ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ﴾ أي بلدهم أو منازلهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ميتين باركين على الرُّكب.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ ﴾ أي أهلكنا عاداً وثموداً ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ أي قد ظهر لكم إهلاكنا إياهم ﴿ مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ ﴾ بالنظر إليها عند اجتيازكم بها، وكان أهلُ مكة يمرون عليها، في أسفارهم إلى الشام، فيبصرونها وهي خراب ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ من فنون الكفر والمعاصي ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ السوي الموصل إلى الحق ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ متمكنين من النظر والاستدلال، ولكن لم يفعلوا ولجُّوا في طغيانهم يعمهون، حتى هلكوا.

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عن عبادة الله ﴿ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾ أي مفلتين من عذاب الله، من قولهم: سبق طالبَه إذا فاته ولم يدركه.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ ﴾ أي فكل واحد من المذكورين عاقبناه بجنايته ﴿ فَمِنْهُم ﴾ تفصيل للأخذ ﴿ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ أي عاصفاً، وهم قوم لوط أهلكهم الله بحصباء من السماء، فدمَّرهم عن آخرهم، وجعل ديارهم عاليها سافلها ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ كمدين وثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ

﴿خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾ كقوم نوح وكفرعون وجيشه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بما فعل بهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالشرك، وتكذيب الرسل، والطغيان، حيث أذلُّوا أنفسهم في عبادة الأوثان.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي فيما اتخذوه معتمداً ومتكلاً، في اعتمادهم عليها، ورجائهم نفعها ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ كمثل العنكبوت بنت لها بيتاً، لا يغني عنها في حرٍّ أو بردٍ، ونَسَجتْه وهو ضعيف، يكاد يطير من لفحة هواء، ولهذا كان سريع الزوال ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾ حيث لا يرى شيء يدانيه، في الوهن، والتفاهة، والحقارة، ولهذا يقال في الأمثال «أوهى من بيت العنكبوت» ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، لجزموا أن دينهم أوهن من ذلك، لأن المعبود ينبغي أن يكون منه الخلقُ، والرزقُ، ودفع الضُرِّ، وجرُّ النفع، فإن من لا يكون كذلك، فهو والمعدومُ سواء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أي هو تعالى العالم بما يعبدون من دونه، لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم، سواء منهم من عبد الحجر أو البشر ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، وفيه تجهيلٌ لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر الحكيم.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ ﴾ أي هذا المثل وأمثاله ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ ﴾ أي نبيِّنها للناس تقريباً لما بَعُد من أفهامهم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ الراسخون في العلم، المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي، والتمثيل يؤثّر في النفس تأثير الدليل، ودلت الآية على فضل العلم.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ ﴾ أي محقاً مراعياً للحِكَم والمصالح، والمقصود من خلقهما إفاضة الخير على العباد ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ دالة على ما ذكر من شؤونه سبحانه، وفيه دلائل على عظم قدرته وعبرة للمعتبرين ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خُصُّوا بالذِّكر لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته، فإن القارىء المتأمل، قد ينكشف له بالتكرار، ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه، وتذكيراً للناس بما فيه من الأحكام، ومحاسن الآداب والأخلاق ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ ﴾ أي داوم على إقامتها ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ ﴾ أي من شأنها وخاصيتها، أن تنهى الناس وتمنعهم ﴿ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ﴾

ومعنى نهيها عنهما، لأنها مناجاة لله تعالى، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته، وإعراضٍ عن كل معاصيه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الصلاةُ رادعٌ ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر، لم تزده صلاتُه من الله تعالى إلاَّ بُعْداً» والمصلي يناجي ربه، فيستحيل أن يترك طاعة الله ويطيع الشيطان، والمصلي يلبس لباس التقوى فيتجنب قاذورات الفحشاء، ومن أقام الصلاة، عصمه الله تعالى عن المنكر والفحشاء ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي والصلاة أكبر من سائر الطاعات، فينبغي أن تكون على أبلغ وجوه التعظيم، وإنما عبر عنها به كما في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله، هو العمدة في كونها مفضَّلة على الحسنات، وناهية عن السيّئات، وقيل: معناه ولذكرُ الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله، إلاَّ حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلتْ عليهم السكينةُ، وذكرهُمُ الله فيمن عنده»[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من سائر الطاعات، فيجازيكم أحسن المجازاة.

﴿۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، على وجهٍ لا يدل على ضعف، وأهلُ الكتاب

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٧٠٠ في الذكر والدعاء والترمذي في الدعوات رقم ٣٣٧٥.

لما آمنوا بالله، وبإنزال الكتب، والحشر، فلمقابلة هذا يجادلُون بالأحسن، بخلاف المشرك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد فإنه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال النبي ﷺ «لا تصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم». .[1] ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة، وفيه تعريض لحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال الموافق لإنزال سائر الكتب ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ أي القرآن العظيم ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كعبد الله ابن سلام وأصحابه ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ أي يصدّقون بالقرآن وبمن أُنزل عليه ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من العرب أو أهل مكة ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ بالقرآن ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عبَّر عن الكتاب بالآيات، لظهورها وقيام الحجة عليها، بأنها من عند الله ﴿إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ المتوغلون بالكفر والتكذيب.

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ١٢٩ تفسير سورة البقرة.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أي من قبل إنزالنا إليك الكتاب، ما كنت تقدر أن تتلو شيئاً من كتاب ﴿ وَلَا تَخُطُّهُۥ ﴾ أي ولا تقدر أن تخطَّه﴿ بِيَمِينِكَۖ ﴾ حسبما هو المعتاد، وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي، ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط، لارتابوا وقالوا: لعلَّه التقطه من كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك، لم يبق في شأنك منشأ ريب أصلاً، لأن ظهور كتاب جامع لأنواع العلوم الشريفة، من أميٍّ لا يعرف القراءة والكتابة، خارقٌ للعادة.

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) ﴾.

﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ واضحات، ثابتة راسخة ﴿ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ ﴾ من غير أن يلتقط من كتاب، فمن خصائص القرآن، كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ المتجاوزون للحد في الشر والفساد، والمكابرة والعناد، بعد وضوح إعجازها.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) ﴾.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ ﴾ مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليه السلام، ونحو ذلك ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ينزّلها حسبما يشاء، من غير دخل لأحد في ذلك قطعاً ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار، وإبانته بما أوتيته من الآيات، وليس لي أن أقول أنزل عليَّ آية كذا.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى، رداً على اقتراحهم، أي أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات، الكتاب الناطق بالحقِّ والصواب ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾؟ في كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تضمحل ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الكتاب العظيم، الباقي مرَّ الدهور ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي نعمة عظيمة ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لمن همه الإيمان دون التعنُّت كأولئك المقترحين.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ بما صدر عني وعنكم بتبليغ ما أرسلت به إليكم، ومقابلتكم بالتكذيب، والتعنت، وهذا إنذار وتهديد ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وهم الذين آمنوا بالطواغيت والأوثان والرهبان ﴿ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي المغبونون في صفقتهم، حيث اشتروا الكفر بالإيمان، والآية من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل، والكفر والخسران إليهم، بل بالإبهام.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ على طريق الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد؟ ونحو ذلك ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم، وبيَّنه في اللوح المحفوظ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ المعيَّن لهم حسبما استعجلوا به، وقيل المراد بالأجل يوم القيامة ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ أي وبالله ليأتينَّهم العذاب الذي عين لهم، عند حلول الأجل (بغتة) أي فجأة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤﴾.

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي يستعجلون بالعذاب، والحال أن محل العذاب سيحيط بهم، تنزيلاً لحال السبب منزلة المسبِّب، لإحاطة الكفر والمعاصي بهم.

﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٥﴾.

﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الذي أشير إليه بإحاطة جهنم، يكون من الأهوال ما لا يفي به المقال ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ أي من جميع جهاتهم ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا على الاستمرار، التي من جملتها الاستعجال مع الاستهزاء، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملونه للمبالغة، بطريق إطلاق اسم المسبّب على السبب.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾.

﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين، الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغي، لممانعةٍ من جهة الكفرة، وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهل

لكم العبادة في بلد، ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فيها، فهاجروا حيث يتسنى لكم ذلك.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثاً على المسارعة في الامتثال بالأوامر، أي كلُّ نفس من النفوس، واجدةٌ مرارة الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي فراجعةٌ إلى حكمنا بحسب أعمالها، فمن كانت عاقبته هذه، فلا بدَّ له من التزود والاستعداد لها.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾ أي لننزلنَّهم ﴿ مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ أي علالي قصور الجنة، ونسكنهم منازل رفيعة في الجنة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية أجراً للعاملين.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أي صبروا على أذية المشركين، وشدائد المهاجرة، وغير ذلك ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيما يأتون ويذرون، ولا يتوكلون إلا على الله تعالى.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم ﴿مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق حملها لضعفها لا تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي إنها لا تطيق الكسب لضعفها ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم، لأن رزق الكل بأسباب، هو المسبب لها وحده، فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة، ولولا أن الله يرزقكم لكنتم أعجز من الدواب، التي لا تحمل رزقها[1]، قيل: لا يدَّخر من الحيوانات قوتاً: إلاَّ ابن آدم، والفأرة، والنمل ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المبالغ في السمع، يسمع قولكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ المبالغ في العلم، فيعلم ضمائركم.

رُوي أن النبي ﷺ لما أمر المؤمنين بالهجرة من مكة إلى المدينة، قالوا: كيف نخرج وليس لنا بها دار، ولا مال؟ فأنزل الله هذه الآية، وفي الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله، لرزَقكم كما يرزقُ الطير، تغدو خِماصاً، وتروح بِطَاناً»[2].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي أهل مكة، إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره، ولا إلى التردُّد فيه، لمَا تقرَّر في

---

(١) القصد من الآية: التقويةُ لقلوب المؤمنين، إذا خافوا الفقر والجوع، عند الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة، مع عجزها وضعفها، كذلك يرزق المؤمنين إذا هاجروا من أوطانهم، نصرةً لدين الله، فلا ينبغي لأحدٍ أن يخاف الفقر، إن هاجر في سبيل الله، فالله هو الخالق وهو الرازق.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٤٥ في الزهد، ومعنى خماصاً أي جياعاً، وبطاناً أي شباعاً.

العقول من أن كل صنعة لا بدّ لها من صانع، وكل مخلوق لا بدّ له من خالق، وهو الله واجب الوجود ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ إنكار واستبعاد لتركهم العمل بموجبه، أي فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى في الألوهية، مع إقرارهم بتفرده تعالى بالخلق والتسخير؟.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسط له ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي يقدر ويُضيِّق لمن يشاء أن يقدر له منهم، كائناً من كان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له، أو يضيِّق عليه، حسب ما يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلاًّ منهما في وقته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بأن الموجد للممكنات بأسرها، هو الله تعالى، ثم إنهم يشركون به تعالى؟ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعل الحق بحيث لا يجترىء المبطلون على جحوده، وأنه تعالى عصمك من أمثال هذه الضلالات، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، حيث يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق، ويعبدون غيره.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي لهي دار الحياة الحقيقية، لامتناع جريان الموت والفناء عليها ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الدارين، لما آثروا دار الفناء على دار البقاء.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي فإذا ركبوا في البحر، ولقوا شدائده ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي لا يدعون غير الله تعالى، لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلاّ هو سبحانه ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي آثروا المعاودة إلى الشرك، قيل: كان أهل الجاهلية، إذا ركبوا البحر، حملوا الأصنام، فإذا اشتدت الريح ألقوها في البحر، وقالوا: يا ربّ، يا ربّ، يا مغيث أغثنا!!.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي يفاجئون الأشراك ليكونوا كافرين بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بسبب الشرك ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء تدبيرهم، عند تدميرهم، وهو وعيد وتهديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي ألم ينظروا ويشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ أي بلدهم مكة المكرمة ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ مصوناً من النهب والتعدي، سالماً أهله من كل سوء ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يعني العرب يسبي بعضهم بعضاً، وكانوا

حوله في تغاور وتناهب ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي أبعد ظهور الحق ووضوحه، يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ وهي المستوجبة للشكر، وتقديم الصلة في الموضعين، لإظهار كمال شناعة ما فعلوا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أنَّ له شريكاً؟ أي هو أظلم من كل ظالم ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالرسول أو بالقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ وفي «لمَّا» تسفيهٌ لهم، بأنهم لم يتأملوا فيه، بل سارعوا إلى التكذيب بدون تريُّث ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ أي ألا يستوجبون الإقامة في جهنم، وقد فعلوا ما فعلوا!؟ فمستقرهم ومسكنهم نار جهنم.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي في شأننا ولوجهنا، خالصاً لمرضاة الله سبحانه ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبل السير إلينا، والوصول إلى جنابنا، ونثبتهم على الهداية والإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معية النصر والمعونة في الدنيا، والمغفرة والثواب في العقبى، والله أعلم بأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت»

* * *

سُورَةُ الرُّومِ

مكية وهي ستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام، أو أدنى أرض الروم إلى فارس ﴿وَهُم﴾ أي الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي من بعد مغلوبيّتهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارس ويقهرونها.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ أي في فترة قصيرة لا تتجاوز بضعة أعوام، والبِضْعُ: ما بين الثلاث إلى التسع، وسبب نزول هذه الآية، على ما ذكره المفسرون، أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودُّون أن تغلب فارسُ الرومَ، لأن فارس كانوا مجوساً، والمسلمون يودون غلبة

الروم، لكونهم أهل كتاب، فغلبت فارسُ الرومَ، فبلغ ذلك الخبرُ المسلمين بمكة، فشقَّ عليهم، وفرح به كفار مكة وقالوا: قد ظهر إخواننا من أهل فارس، على إخوانكم من أهل الروم، فلنغلبنَّ عليكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية معجزة للرسول ﷺ حيث أخبر عن أمرٍ غيبي، وشاهدة بكون القرآن من الله تعالى ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي في أول الوقتين وفي آخرهما، حين غُلبوا، وحين يَغْلِبون، فالمعنى: إن كلاًّ من كونهم غالبين أو مغلوبين، ليس إلاَّ بأمر الله وقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذْ يغلب الرومُ، ويحلُّ ما وعد الله به ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ من غلبتهم، وقيل: نصر الله: إظهارُ صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين، من غلبة الروم على فارسَ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أي من يشاء أن ينصره من عباده ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المبالغ في العزة والغلبة، ينتقم من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة لأوليائه وأحبابه.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، كأنه قيل: وَعَدَ الله وعداً بظهور الروم عليهم ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أيَّ وعدٍ كان، مما يتعلق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من شؤونه تعالى وحكمته.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ زخارفها وأحوالها الموافقة لشهواتهم، كأمر معاشهم، كيف يكسبون؟ ومتى يزرعون؟ ومتى يحصدون؟ وتنكير ﴿ظاهراً﴾ للتحقير، أي يعلمون ظاهراً حقيراً من الدنيا ﴿ وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ أي وهم عميٌ عن أمر الآخرة، التي هي الغاية القصوى، ومن الناس من ينقر الدرهم بطرف ظفره، فيعرف جيده وزيفه، وهو لا يعرف كيف يصلّي، أي يعلمون ظاهرها ولا يعلمون باطنها، وهي مضارّها وفناؤها، وإيرادها جملة اسمية، للدلالة على استمرار غفلتهم، وتشبيهاً لهم بالحيوانات، المقصور إدراكها بظاهرها.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ ﴾ فإنها أقرب إليهم من غيرها، ومرآة يتجلّى فيها للمستبصر، ما يتجلى له في الممكنات بأسرها، ليتحقَّق له قدرة مبدعها ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾ الذي يحقُّ أن يثبت، أي ما خلقهما إلا بالحكمة البالغة، والغرض الصحيح، الذي يدلُّ على وجود صانعها ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي بأجل معيَّن، قدَّره الله تعالى لبقائها، وهو وقت قيام الساعة ﴿وإنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِم لَكافِرُونَ﴾ توضيحٌ مقرِّر لما قبله ببيان السبب أي وأكثر الناس غير مقتصرين على الغفلة، وعدم التفكر، بل هم منكرون لقاء حسابه تعالى، يحسبون أنَّ الدنيا أبدية، وأن الآخرة لا تكون.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ توبيخ لهم على عدم اعتبارهم، بمشاهدة أحوال أمثالهم، الدالة على عاقبتهم، فقد سافروا في أقطار الأرض وشاهدوا ولم يعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ أي قلبوها للزراعة والحرث. ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ بفنون العمارات ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي أكثر من عمارة هؤلاء لها، وفيه تهكم بهم، حيث كانوا مغترين بالدنيا، مع ضعف حالهم، وهم أهل واد غير ذي زرع ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم بالآيات الواضحات، والمعجزات الساطعات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما كان الله ليهلكهم من غير جرم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم كذبوا رسلهم واقترفوا ما يوجب هلاكهم، فدمَّرهم الله ولم تنفعهم قواهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ أي عملوا السيئات، وارتكبوا الجرائم في هذه الحياة الدنيا، ووضعُ الاسم الموصول ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ موضع ضميرهم، للتسجيل عليهم بالإساءة وللإشعار بعلة الحكم ﴿السُّوأَىٰ﴾ أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة على رسوله، ومعجزاته الظاهرة ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي كانوا يسخرون منها ولا يؤمنون.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١)﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء، والالتفاتُ للمبالغة في الترهيب.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ التي هي وقت الإعادة للحساب ﴿ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي يسكتون متحيرين وييأسون، يقال: ناظرته فأبلس، أي أيسَ من أن يحتجَّ، وسكت تحيراً.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ ﴾ يجيرونهم من عذاب الله، كما كانوا يزعمونه في الدنيا ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي سيكونون ﴿ بِشُرَكَآئِهِمْ ﴾ أي بآلهتهم ﴿ كَـٰفِرِينَ ﴾ أي وكفروا بآلهتهم حين يئسوا منهم.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أعيد لتهويله ﴿ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أي جميع الخلق، لا المجرمون خاصة، وذلك بعد تمام الحساب.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ ﴾ المراد بها الجنة، والروضةُ كل أرض ذات نبات، وماءٍ، ورونق ونضارة ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ أي يُسرُّون سروراً تتهلل له وجوههم.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي وأما الذين جحدوا بآياتنا، وكذبوا بالبعث والحساب ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما فُصِّل ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ على الدوام، لا يغيبون عنه أبداً.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أمر سبحانه عباده بتنزيه الله تعالى، عن كل ما لا يليق بشأنه، أي فسبِّحوا الله في هذه الأوقات.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ واحمدوه في المساء والصباح، وفي العشي والظهيرة، فهو سبحانه المحمود بذاته وصفاته، في السماء والأرض، أي يحمده أهل السماء والأرض، وفي الحديث الشريف: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان للرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1] وقيل: المراد به الصلاة أي صلُّوا لربكم في الصباح والمساء، وفي الظهيرة والليل، قيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم وتلا هذه الآية.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان. والشجرة من النواة، والنواة من الشجرة ﴿وَيُحْىِ

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ١١/ ١٧٥ ومسلم في الذكر رقم ٢٦٩٤ وقد ختم الإمام البخاري صحيحه بهذا الحديث الشريف.

﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ أي بعد يبسها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أي من قبوركم، كما بدأكم يعيدكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي البراهين الدالة على أنكم تبعثون، دلالةً أوضح مما سبق، فإن دلالة بدء الخلق على الإعادة، أظهر من دلالة إخراج الحي من الميت، ومن إحياء الأرض، ولهذا قال ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي في ضمن خلق آدم عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ أي من تراب لم يشمَّ رائحة الحياة قط، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه، في ذاتكم وصفاتكم ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي فجئتم بعد ذلك، وقت كونكم بشراً ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرض، عقلاء ناطقون، آدميون من لحم ودم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على ما ذُكر من البعث والجزاء ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي لأجلكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي لتألفوا بها، وتميلوا إليها، وتطمئنوا بها، فإن المجانسة من دوام المؤانسة، كما أن المخالفة من أسباب التنافر، والإنسان يجد بين الزوجين من التراحم، ما لا يجده بين ذوي الأرحام، وليس ذلك بمجرد الشهوة، فإنها قد تنتفي، وتبقى الرحمة لأنها من الله جلَّ وعلا ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بين الأزواج ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي تواداً وتراحماً من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة، ولا رابطة مصححة للتعاطف ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من خلقهم، وإلقاء المحبة بينهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل، المبنية على الحكم البالغة.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على عظمتها وكثافتها ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي لغاتكم، بأن علَّم كل صنف لغته، وألهمه وضعها، كما ميَّز بين نطقكم، فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين من كل وجه ﴿ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ كبياض الجلد وسواده، وتخطيطات الأعضاء وهيآتها، بحيث يقع بها التمايز بين الأشخاص، حتى إن التوأمين ـ مع توافق موادهما وأسبابهما في التخليق ـ يختلفان في شيء من ذلك، وإن كانا في غاية التشابه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر من خلق السموات، واختلاف الألسن، والألوان ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ أي للمتصفين بالعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي في الزمانين: في الليل، ووقت الظهيرة بالنهار، لاستراحة القوى النفسانية، والقوى الطبيعية ﴿ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي وابتغاؤكم بالنهار من رزق الله[1]، فالليل للراحة والسكون،

---

(١) ينبغي للعبد أن لا يرى الرزق من كسبه ومهارته، بل يراه كله من فضل ربه، ولهذا قرن تعالى الابتغاء في كثير من المواضع بالفضل، منها قولُه تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ وقوله سبحانه: ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فالرزق رزقُ الله، والخلق خلقُ الله وصدق الله العظيم ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾.

والنهار لطلب الكسب والرزق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي شأنهم أن يسمعوا الكلام، سماع تفهم واستبصار، حيث يستدلُّون بذلك على شؤونه تعالى.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث من أجل الزرع ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قدرة الله تعالى فإنها من الظهور بحيث يكفي في إدراكها، مجرد العقل، عند استعماله في استنباط أسبابها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ﴾ أي بإقامته، وتدبيره، وحكمته قيامهما بأمره تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للبعث ﴿دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم، وهو أن يقول: قوموا للحساب والجزاء، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين، إلاَّ قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ والمراد تشبيه سرعة حصول ذلك، على تعلق إرادته سبحانه بلا توقف.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي منقادون خاشعون خاضعون لجلال الله، مقرون له بالعبودية، مطيعون له سبحانه في الحياة والبقاء، والموت والبعث[1]، وإن عصوا في العبادة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ بعد هلاكهم للبعث ﴿ وَهُوَ ﴾ أي البعث ﴿ أَهۡوَنُ ﴾ أي أيسر ﴿ عَلَيۡهِۚ ﴾ أي عندكم، لأنَّ الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء، فلم أنكرتم الإعادة؟ ﴿ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ﴾ أي الوصف الأعلى العجيب الشأن، كالقدرة التامة، والحكمة العامة ﴿ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه فيه ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ أي على ألسنة الخلائق ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ القادرُ الذي لا يعجز عن شيء ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الذي يُجري الأفعال على مقتضى حكمته.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨ ﴾.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ ﴾ منتزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور

---

(١) ليس على الله عزَّ وجل شيء صعبٌ، وشيء هيِّنٌ، فالكل على الله سهل يسير، ولكنه سبحانه خاطب البشر بما يعقلون ويفهمون، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء، في حكمهم وتقديرهم، فلْيدركوا إذاً أن من قدر على الخلق أولاً قادر على الإعادة ثانياً، فالبعث أهون عليه حسب منطق البشر، والغرضُ من الآية إلزام الكفار بالحجة حيث يقرّون أن الله هو الخالق، ثم ينكرون قدرته على إحياء الموتى.

إليكم، مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ، لمن جعل له شريكاً من خلقه، ثم بيّن المثل فقال تعالى ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي من مماليككم يا معاشر الأحرار ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ من مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه، هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر أن يشاركوكم ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنتُمْ﴾ والعبيد ﴿فِيهِ﴾ في ذلك الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ من غير تفضيل بين حر، وعبد ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أي خائفاً بعضكم بعضاً مشاركته في المال، تخافون عبيدكم فيها ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني كما يخاف بعضُ الأحرار بعضاً، فيما هو مشترك بينهم، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لربِّ الأرباب أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبيّنها، لأن التمثيل يكشف عن المعاني ويوضّحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال. ولمّا لم ينزجروا أضرب عنهم فقال:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالإشراك ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي جاهلين لا يكفُّهم شيء عن ضلالهم ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ فمن يقدر على هداية من أضله الله تعالى ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلالة، وينجونهم من عذاب الله.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي فقوِّمْ وجهك له، غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيلٌ لإقباله على الدين، والاهتمام به أي أخلص دينك لله ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي الزموا فطرة الله ﴿ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ أي خلقهم عليها، فالمعنى: إنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام، حتى لو تُركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، فمن غوى منهم فبسبب شياطين الجن والإنس، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة، ثم قال اقرؤوا: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا﴾»[1] ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا يقدر أحد أن يغيِّره، قال الزجاج: معناه لا تبديل لدين الله، ويدلُّ عليه ما بعده ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي جهلة لا يتفكرون فينحرفون عن دين الله وهدايته.

﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي راجعين إليه تعالى بالتوبة، وإخلاص العمل، وهو حال من الضمير في: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن الأمر له ﷺ أمرٌ لأمته، فكأنه قال: فأقيموا وجوهكم منيبين إليه، ودليله قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة.

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان «البخاري ومسلم» وتمامه: ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟ ثم قال ﷺ: واقرؤوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وانظر جامع الأصول ١/ ٢٦٨.

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل من المشركين بإعادة الجار ﴿ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ ﴾ أي صاروا فِرَقاً، كلُّ واحدة تشايع إمامها، الذي أضلها، وهم اليهود، والنصارى، والمجوس، وعبدة الأوثان، ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي مسرورون، راضون بما عندهم، يحسبون باطلهم حقاً، وكل فرقة تزعم أنها على شيء، ونعوذ بالله من تفرق الأهواء.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي راجعين إليه سبحانه بالتضرع والدعاء ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ أي خلاصاً من تلك الشدة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ ﴾ الذي كانوا دعوه منيبين إليه ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجؤوا بالإشراك؛ وتخصيصه ببعضهم، لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾[1] الآية.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ ﴾ اللامُ فيه للعاقبة، أي ليكفروا بنعم الله التي أكرمهم بها ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ الالتفات فيه للمبالغة ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة تمتعكم بنعيمها الفاني.

---

(١) سورة لقمان، آية: ٣١.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا ﴾ الالتفات للإيذان بالإعراض عنهم ﴿ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ حجة واضحة قاهرة على شركهم ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ أي بإشراكهم به تعالى، فالمعنى: أهم يتبعون الأهواء بغير علم، أم لهم دليل على ما يقولون؟.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ ﴾ أي نعمة من صحة، وسَعَة، ونحوهما فرحوا بَطَراً وأشراً، لا حمداً وشكراً ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ ﴾ أي جدبٌ أو خوف ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤوا بالقنوط من رحمة الله، وهو خلاف وصف المؤمن لأن المؤمن من يشكر ويرجو، ويعبد الله في الشدة والرخاء، مخلصاً لله تعالى.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء، ويضيّقه على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة فما لهم لم يشكروا، ولم يكونوا في السراء والضراء كالمؤمنين؟ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ يستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يؤمنون بحكمة الخالق الرازق.

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾ تخصيص الأقسام الثلاثة، لبيان من يجب الإحسان إليهم، والمقصود ههنا الشفقة بهم، والخطاب للرسول ﷺ أو لمن يصلح له ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ ﴾ ذاته تعالى، ويقصدون بمعروفهم إياه خالصاً لوجهه ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ حيث حصل لهم النعيم المقيم.

﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩ ﴾.

﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي ليزيد مالكم ويكثر عن طريق الربا ﴿ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي لا يبارك الله فيه ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ ﴾ أي ذاته خالصاً لوجهه ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾ أي هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب، ونظيرُ المضعف، المقوي، والموسر، لذي القوة واليسار، كأنه قال: هم أهل الإضعاف الذين يستحقون مضاعفة الأجر.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ ﴾ أثبت له تعالى لوازم الألوهية وخواصَّها، ونفاها عما اتخذوه من الشركاء، أي الله سبحانه هو وحده الخالق الرازق، خلقكم من العدم، ثم يبعثكم بعد الموت، فهل من آلهتكم المزعومة من يفعل شيئاً من ذلك؟ ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ أي تنزّه وتقدس عن أن يكون له مثيل أو نظير، في الخلق والإبداع.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ كالجدب، وكثرة الحَرَق، والغَرَق، ومحقِ البركات، وكثرة المضار، وقلة المطر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي بشؤم معاصيهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1] ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي بعض جزائه، وتمامُه في الآخرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عما كانوا عليه من الشرك والمعاصي، ثم أكد تسبُّب المعاصي لغضب الله بقوله سبحانه:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ ليشاهدوا آثارهم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ أي الدين المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو الدين الحق دين الإسلام، خاطب النبي ﷺ، ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلَّف به، فإنه أُمِرَ به أشرفُ الأنبياء ﷺ ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي لا يقدر أحدٌ على ردِّه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لتعلق إرادته سبحانه بمجيئه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله يتصدَّعون أي يتفرقون فريقٌ في الجنة، وفريق في السعير.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي وبالُ كفره، وهو النار المؤبدة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ولم يقل من آمن لأن العمل الصالح يكمِّل الإيمان ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يسوُّون ويهيئون لهم منزلاً في الجنة، مأخوذ من تمهيد الفراش، وهو فرشُه وتهيئته بما يحقّق الراحة.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي ليجزي المؤمنين المتقين أفضل الجزاء، من فضله وكرمه، بسبب صالح أعمالهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يحب الجاحدين لفضل الله، بل يكرههم ويمقتهم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي وليكرمكم بإنزال الغيث الذي يحيي البلاد والعباد، وفي الرياح فوائد: منها إصلاح الهواء، ومنها إثارة السحاب، ومنها جريان الفلك بها، وزكاء الأرض، وغير ذلك ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بتجارة البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فجاء كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات، والحجج الساطعات فآمن بهم قوم، وكفر بهم قوم ﴿ فَٱنتَقَمْنَا ﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ أي كفروا، بالإهلاك في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مزيد تشريف للمؤمنين، والإشعار بأن الانتقام من الكفرة لأجلهم، روي عن أبي الدرداء أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردُّ عن عرض أخيه، إلاّ كان حقّاً على الله، أن يردَّ عنه نار جهنم، يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية [(١)].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته يبعث الرياح فتحرّك السحاب، وتسوقه أمامها ﴿ فَيَبْسُطُهُۥ ﴾ تارةً ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ في جوِّها ﴿ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ خفيفاً أو كثيفاً، مطبقاً أو غير مطبق ﴿ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾ تارة أخرى أي قطعاً ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أي المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ أي أصاب المطر بلادهم وأراضيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يُسرُّون ويفرحون بنزول الغيث، وفوجئوا بالاستبشار بمجيء الخصْب.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب رقم ٤٨٨٤ بلفظ «ما من مسلم يخذل امرأً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته، ويُنتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته.. وما من مسلم ينصر مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحبُّ فيه نصرته».

﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ تكرير «قبل» للتأكيد والإيذان بطول عهدهم بالمطر، واستحكام يأسهم منه ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي آيسين من رحمة الله، فإنهم إذا حبس عنهم المطر قنطوا، وإذا نزل المطر بطروا، وتكبَّروا على ربهم.

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تبصُّر وتدبر، إلى آثار نعمة الله، المترتبة على تنزيل المطر، من النبات، والأشجار، وأنواع الثمار ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي كيف يحييها الله تعالى ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ بعد يبسها ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أي الذي قدر على إحياء الأرض ﴿ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي لقادر على إحيائهم كما يحيي الأرض الميتة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع، بعد خضرته ونموّه، ريحاً ضارة مفسدة، وإنما قال ﴿رِيحاً﴾ لأنها مهلكة ومدمرة، وتسمى النافعة رياحاً، والضارة ريحاً، لأن النافعة كثيرة الهبوب، والضارة قليلة كريح السموم ﴿ فَرَأَوْهُ ﴾ أي فرأوا الزرع والنبات ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ بعد خضرته وانتعاشه ﴿ لَّظَلُّوا۟ ﴾ اللام جواب القسم أي لاستمروا أي وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصَّفار، فرأوه مصفراً ليظلُنَّ ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾ أي يجحدون ما سَلَف من النعمة، من غير تلعثم، وفيه

ذمهم لسرعة تزلزلهم، فإن النظر السويَّ يقتضي أن يتوكلوا على الله، ويلجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم، ولا ييئسوا من رحمة الله، وأن يصبروا على بلائه.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار لأنهم كالموتى، لانسداد مشاعرهم عن الحق ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ قيد الحكم به لأن الأصم إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولَّى، لا يسمع ولا يفهم، فقد جمعوا لخصلتي السوء: نبوّ أسماعهم عن الحق، وإعراضهم عن الإصغاء إليه، ولو كان أحدهما فيهم لكفاهم ذلك بلاءً.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ سمَّاهم عمياً لفقدهم المقصود من الإبصار، أو لعمى قلوبهم ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما تسمع ﴿ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها، ويلقاها بالقبول ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لأوامر الله تعالى.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ وهو النطفة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك عند بلوغكم الحُلُم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ أي هرماً ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ المبالغ في العلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ﴾ أي ما مكثوا في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ استقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق ﴿كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق في الدنيا، ويقولون: ﴿ما هي إلاَّ حياتُنا الدُّنيا وما نحنُ بمبعُوثينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي قال العقلاء من أهل العلم والإيمان ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علمه وقضائه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ ردُّوا بذلك ما قالوه، وأيدوه باليمين، كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود، الذي كانوا ينكرونه، فرد العالمون مقالتهم وبكَّتوهم بالإخبار بوقوعها، حيث قالوا ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم توعدون في الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق، فتستعجلون به استهزاءً.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يُدعون إلى ما يقتضي استعتابهم، أي فلا يقال لهم أرضوا ربكم بالتوبة والطاعة، كما دُعوا في الدنيا إليه.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ ﴾ أي وبالله لقد بينَّا للناس في هذا القرآن العظيم، ما يحتاجون إليه من المواعظ، والأمثال، والأخبار، ما يوضّح الحقَّ، ويزيل اللَّبس ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ لفرط عتوهم وعنادهم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أي ما أنتم إلا مزوّرون تدجّلون علينا وتكذبون.

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الطبع ﴿ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يطلبون العلم، ولا يتحرون الحق، بل يصُرِّون على خرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحقِّ.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ على ما تشاهد منهم من السخرية والتكذيب ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ ﴾ بنصرتك، وإظهار دينك على الدين كله، ولا بد من إنجاز وعده، وإظهار دينه ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ لا يحملنَّك على الخفَّة والقلق مما تلقاه منهم من الأفعال السيئة، والأقوال الباطلة ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بما تتلو عليهم من الآيات، ولا تترك الصبر لتكذيبهم وإيذائهم. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم»

* * *

سُورَةُ لُقْمَانَ

وهي أربع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾.

﴿ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي المحكم من التغيير والتبديل، والمحكم في تشريعه وأحكامه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾.

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هداية ورحمة للمؤمنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا واتقوا الله.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ تخصيصُ الثلاث لفضلها، وتكرير الضمير للتوكيد.

obeikandl.com

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ أي الفائزون بجميع أنواع السعادة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ أي يستبدل ما يُلهي عن طاعة الله، ويصد عن سبيله، مما لا خير فيه ولا فائدة، كالأحاديث المضحكة، والأساطير التي لا اعتداد بها، والغناء الماجن، وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري أخبار العجم، ويحدِّث بها قريشاً ويقول: إن محمداً يحدِّث بعاد، وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسنفديار، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن، وقيل: هو شراء المغنِّيات، وحملهن على معاشرة من أراد الإسلام لمنعه عن الدخول فيه، عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات والمغنيات، ولا تشتروهن، ولا تعلموهنَّ، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام، وفي مثل هذا نزلت: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيث﴾[1]» الآية ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي عن دينه الحق، أو عن قراءة كتابه ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ أي بغير حجة أو برهان ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ ﴾ ويتخذ السبيل سخرية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ لإهانتهم الحق، بإيثار الباطل، وترغيب الناس فيه.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٩٣، وابن ماجه في التجارات رقم ٢١٦٨ باب ما لا يحل بيعه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي على المشتري ﴿ ءَايَٰتُنَا ﴾ أي آيات القرآن الكريم ﴿ وَلَّىٰ ﴾ أي أعرض عنها غير معتدٍّ بها ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ مبالغاً في التكبر، لا يعبأ بها ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كحال من لم يسمعها ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي مشابهاً بمن في أذنيه ثقل وصممٌ، لا يقدر أن يسمع، والوَقْرُ: الثِّقَلُ والصمم الذي يمنع من السمع ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأنذره بالعذاب المفرط في الألم، والأسلوب أسلوب تهكم وسخريةٍ، لأن البشارة لا تكون بالعذاب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي صدَّقوا الله ورسوله، وآمنوا بما أنزل الله على رسوله من الآيات البينات ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي فعلوا الخيرات، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي لهم نعيم الجنات، فعكس للمبالغة، وفي توحيد العذاب، وجمع الجنات، إشارة إلى أن الرحمة واسعة، أكثر من الغضب.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ ﴾ .

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ مصدران مؤكِّدان، لأن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ في معنى وَعَدَ اللهُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ لا يغلبه شيء، فيمنعه عن إنجاز وعده، ووعيده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ أي خلقها بغير دعائم، حال كونكم ترونها كذلك ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ أي كيلا تضطرب بكم ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ﴾ أي من كل أنواع الحيوانات.. والدواب ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ من كل صنف كثير المنفعة، وكأنه تعالى استدلَّ بذلك على عزته، التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهَّد به قاعدة التوحيد، وقرَّرها بقوله سبحانه:

﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾.

﴿هَٰذَا﴾ أي ما ذُكر من خلق السماوات والأرض وما فيهما من البدائع ﴿خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ أي مخلوقاته ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؟ مما اتخذتموهم شركاء له تعالى في العبادة؟ ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذُكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال المبين.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝١٢﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وهو لقمان الحكيم عاش حتى أدرك داود عليه السلام، والجمهور على أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً، ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام أياماً، وكان يسرد الدروع، فلم يسأله عنها، فلما أتمَّها ولبسها قال: «نعم لَبُوسُ الحرب» ومن أقواله: «الصمتُ حكمةٌ

وقليلٌ فاعله» ومنها «القلب واللسان، هما أطيبُ شيء إذا طابا، وأخبثُ شيءٍ إذا خبثا» قيل له: فبم بلغت ما بلغت؟ قال: «بصدقِ الحديثِ، وأداء الأمانة، وتركِ ما لا يعني» ومنها قولُه: «ليس مالٌ كصحة، ولا نعمةٌ كطيب نَفس» قيل للقمان: أيُّ الناس أشرُّ؟ قال: «الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً» ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي اشكر لله تعالى ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ له تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن منفعته تعود عليه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن كل شيء، فلا يحتاج إلى الشكر، حتى يتضرر بكفران الكافر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد، وإن لم يحمده أحد، أو محمود يحمده جميع المخلوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ أي وهو ينصحه ويرشده ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير إشفاق ورحمة ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً، بشراً أو صنماً، ولا تعبد غير الله ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليلٌ للنهي، وسماه ظلماً لأنه وضع العبادة في غير موضعها. بدأ بالأقرب وهو ابنه، وبالأهم وهو المنع من الشرك، الذي هو أعظم الذنوب على الإطلاق.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (١٤)﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً، وعهدنا إليه بهذه الوصية، وهي الإحسان إلى والديه، وجاء هذا في أثناء وصية لقمان، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصيناه بمثل ما وصَّىٰ به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك، فإنهما مع أنهما اقترن ذكرهما مع الله تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة، لا يجوز طاعتهما في الإشراك بحالٍ

من الأحوال ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ أي ضعفاً فوق ضعف، لأنها لا تزال يتضاعف ألمها، إذ الحملُ ضعفٌ، والطَّلق ضعفٌ، والرضاعةُ ضعفٌ ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ وهي مدة الرضاع، أي وفطامه في تمام عامين ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ تفسير لوصينا أي وصيناه بشكرنا ﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أي ويشكر والديه، لأن الوجود في الحقيقة من الله تعالى، والوالدان سبب لوجوده، فجعل الشكر بينهما ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي الرجوع إليَّ لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدر عنك.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ بشركته له تعالى في استحقاق العبادة ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ في ذلك ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف، صحبة يرتضيها الشرع، وتقتضيها المروءة ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ بالتوحيد، والإخلاص في الطاعة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بما صدر عنه من الخير والشر.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ شروعٌ في حكاية بقية وصايا لقمان ﴿إِنَّهَآ﴾ أي إن الخصلة من الإساءة والإحسان ﴿إِن تَكُ﴾ مثلاً في الصغر ﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ أي وزن حبة الخردل ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لو كانت في غاية الصغر، في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة، أو

كانت السيئة التي يفعلها الإنسان في العالم العلوي، أو السفلي ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي يحضرها اللهُ ويحاسب عاملها عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ بكنهه، عالم ببواطن الأمور، والغرض من الآية: التمثيلُ بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٧﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بعدما أمره بالتوحيد، في ضمن النهي عن الشرك، ونبَّهه على كمال علم الله تعالى وقدرته، أمره بالصلاة، التي هي أكملُ العبادات، تكميلاً له من حيث العمل، بعد تكميله من حيث الاعتقاد، وهذا دليل على أن التوحيد والصلاة، مأمورٌ بهما في سائر الأمم ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد والمحن، لا سيما فيما أُمرت به ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي مما فرضها الله تعالى، والجملة تعليل لوجوب الامتثال، بما سبق من الأمر والنهي، فهذه الخصال من عزائم الأمور، التي حضَّ وحثَّ عليها رب العزة والجلال.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨﴾.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمله، ولا تولّهم صفحة وجهك، كما هو ديدن المتكبرين، من الصَّعَر وهو داءٌ يصيب البعير، فيلوى منه عنقه يقال: صعَّر خدَّه أي أماله عن الناس، إعراضاً وتكبراً ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هو البطر مصدر وقع موقع الحال أي فرحاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي يكره كل متكبر يفخر على غيره، وهو تعليل للنهي عن التكبر والخيلاء.

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾ أي توسَّطْ بين البطء والإسراع، أما الإسراع فهو من الخيلاء، وأمَّا البطء فهو علامة الضعفِ، وكلا الطرفين مذموم، بل ليكن مشيُكَ بين السكينة والوقار ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾ أي اخفض من صوتك ولا ترفعه عالياً، فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل، ولهذا عقَّبه بقوله: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ أي أوحشها، على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالبهائم، وفي الآية إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال.

﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ ﴾ رجوع إلى سنن ما سلف، قبل قصة لقمان، من خطاب المكلَّفين، أي ألم تروا أيها الناس رؤية قلبية، كأنها مشاهدة بالبصر، إلى ما أنعم الله به عليكم ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ ﴾ أي محسوسةً ومعقولة ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ ﴾ في توحيده وصفاته ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ أي بغير علمٍ مستفادٍ من الدليل ﴿ وَلَا هُدٗى ﴾ من جهة الرسول ﷺ ﴿ وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ أنزله الله سبحانه، بل بمجرد التقليد، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ يريدون به عبادة الأصنام ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ ﴾ أي يدعو آباءهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾؟ أي أيتّبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى ما هم عليه من الشرك والضلال؟.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بأن فوّض إليه نفسه بكليته، ومعنى التسليم حيث عُدّي باللام قصد معنى الإخلاص، كما في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾ أي خالصاً له، ومعناه مع ﴿إلى الله﴾ التفويض إليه تعالى ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في أعماله ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ ﴾ أي تمسّك وتعلّق ﴿ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي بحبل الله المتين، والآية على التمثيل كأنه تمسّك بحبل متين لا ينقطع ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ لكل صائر إليه فيجازيه أحسن الجزاء.

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي ومن لم يؤمن بالله، ولم يُسلم له وجهه ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي، ونأخذهم بالعذاب والعقاب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي لا يخفى عليه سرُّهم وعلانيتهم، فيفعل بهم على حسب ما يستحقون.

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ تمتيعاً ﴿قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً، أي نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا، إلى انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم تحمُّله، ثقل الأجرام الغلاظ، حيث يُضمُّ إلى الإحراق الشِدَّة، والتضييق، شبَّه تعالى إلزام التعذيب، باضطرار المضطر إلى الشيء المكروه، الذي لا تحبه النفس.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون عظمة الله وجلاله، وقدرته على الخلق والإحياء، فلذلك ينكرون وحدانيته وجلاله.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي هو جلَّ وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي لو ثبت كون الأشجار التي في الدنيا صارت كلُّها أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد نفاده ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي مداد، والخلائق يكتبون بتلك الأقلام، وبذلك المداد كلمات الله عزَّ وجل ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ لأنها لا نهاية لها، كما في قوله

تعالى: ﴿لَنَفِد البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ ربي﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجزه شيء أراده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، فلا تنفدُ كلماته المؤسَّسة عليهما.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي إلاَّ كخلقها وبعثها، في سهولة التأتي، إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن، لأن مناط وجود كل شيء، تعلُّق إرادته العليا مع قدرته الذاتية، حسبما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي يسمع كلَّ مسموع، ويبصر كل مُبْصَر، لا يشغله إدراك بعضها عن بعض، فكذلك الخلق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وقيل: عامٌّ لمن يصلح للخطاب وهو الأوفق، أي ألم تعلم أيها الإنسانُ علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل، ويزيد في هذا فيطول، ويُنقص من هذا فيقصر، ولهذا يطول النهار في بعض الفصول وينقص، وتلك آية كونية. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنَّ الله يُولِجُ﴾ داخل معه في حيّز الرؤية، فإن من شاهد مثل هذا الصنع الرائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عزَّ وجل، محيطاً بجلائلِ أعماله، ودقائقها.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ أي ذلك الوصف الذي وُصف به، من عجائب قدرته وحكمته، التي يعجز عنه الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله؟ إنما هو بسبب أنه تعالى هو الحقُّ الثابتُ إلَهيته، ولأجل بيان بطلان إلَهية ما يدعونه من دونه تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي وبيان أنه تعالى هو المرتفع على كل شيء، فهو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بإحسانه ولطفه في تهيئة أسبابه، وهو استشهادٌ آخر على باهر قدرته، فقد سخَّر البحر لتجري فيه السفن الكبار، تحمل الأغذية والبضائع، من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، تجري بهذه السفن الريح، والريحُ من نعم الله تعالى ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أي بعض آياته، وبعض دلائل وحدته ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي إن فيما ذُكر، لآيات عظيمة، ودلائل باهرة، لكل من يبالغ في الصبر على المشاقِّ، وفي الشكر على نعمائه تعالى، وهما صفتا المؤمن، فكأنه قيل: لكل مؤمن، صابر شاكر.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ ﴾ أي علاهم وأحاط بهم الموج ﴿ كَٱلظُّلَلِ ﴾ كما

يُظلُّ الجبلُ، والسحابُ، يعني أن الموج الذي جاءهم كثيف مخيف، كالجبال هولاً وشدة ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي استغاثوا بالله، وأخلصوا الدعاء لله، لزوال ما ينازع الفطرة، من الهوى، والتقليد، وبما دهاهم من الهول والخوف الشديد ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ أي مقيم على القصد السويِّ، الذي هو التوحيد، وفي الآية حذف تقديره: ومنهم جاحد، بدليل قوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا...﴾.

نزلت في عكرمة بن أبي جهل، هرب عام الفتح إلى البحر، فجاءهم ريح عاصف، فقال عكرمة: لئن أنجانا الله من هذا، لأرجعنَّ إلى رسول الله ﷺ فأبايعه على الإسلام، فسكتت الريح، ورجع عكرمة إلى مكة، وأسلم وحَسُنَ إسلامُهُ[1]. ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ﴾ أي غدَّار، والختر: أشدُّ الغدر ﴿كَفُورٖ﴾ أي مبالغ في كفران النعمة، يجحد فضل الله، ويكذِّب بآياته، وقليل من عباد الله الشكور!!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي خافوا يوماً شديداً عصيباً، لا يقضي عنه شيئاً من التبعات، ولا يدفع عنه مضرة ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي ولا ولدٌ يدفع ويقضي عن والده شيئاً، ولا يتحمل عنه جنايته، وفيه قطع طمع من توقَّع من المؤمنين، أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقّٞ﴾ لا يمكن إخلافه

---

(١) الآية على العموم، فهي تعمُّ كل كافر جاحدٍ لفضل الله وإنعامه، وما ذكر من سبب النزول لا يمنع العموم، فإن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، كما ذكر في علم الأصول.

أصلاً ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي فلا تخدعكم الحياة الدنيا بزينتها ومفاتنها ولذاتها، فتشغلكم عن طاعة الله وعبادته، ولا يخدعكم الشيطان المبالغ في الغرور للإنسان، بأن يحملكم على المعاصي، ويقول لكم: إن الله غفور رحيم، يغفر الذنوب جميعاً، فتركنوا إلى وساوسه وأباطيله. والإنسان قد يكون ضعيف العقل، فيغترُّ بأدنى شيء من بهرج، وقد يكون قويَّ الجأش متين العقل، ولكنْ إذا جاءه غارٌّ، وزيّن وحسَّن له ذلك الشيء قد يغتر، فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ للدرجة الأولى من البشر، وقال: ﴿ولاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ﴾ الإشارة إلى الثانية ليكون الإنسان محفوظاً من الاثنتين: فتنة الدنيا، وفتنة الشيطان اللعين.

> ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها، والمراد بالساعة مجيء يوم القيامة، فلا يعلمه أحد إلا الله، عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله» وتلا هذه الآية[1]. يحكى أن أبا جعفر المنصور رأى في منامه صورةَ مَلَك الموت، فسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبرها له المعبِّرون بخمس سنوات، وبخمسة أشهر، فاستدعى أبا حنيفة رحمه الله وسأله عن الرؤيا، فقال له: هو يشير إلى هذه الأشياء الخمس في الآية التي لا يعلمها إلاَّ الله، وتلا قوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة..﴾ الآية. ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في أيامه المقدرة له وبالكمية التي يريدها الله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي يعلم سبحانه أذكرٌ أمْ أنثى؟ أتام أم ناقص؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٩٥ وفي الاستسقاء.

﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، ربما تعزم على شيء فتفعل خلافه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقتٍ تموت[1]، ونسبةُ العلم إلى الله، والدراية إلى العبد، للإيذان بأنه وإنْ بذل وسعه في التعرف لم يعرف، لأنه لم ينصب له دليل، ثمَّ لما في معنى الدراية من معنى الحيلة، والمعنى: إنها لا تعرف وإن أعملت حيلتها، يُقال: دريتُ الشيء أي عرفتُه وعلمتُه، أمَّا المنجِّم الذي يخبر بوقت الغيث، والموت، فإنه يقول ذلك بالقياس، والنظر، وهو كذاب في هذا، ولهذا ورد في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عَرَّافاً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ يعلم بواطنها، كما يعلم ظواهرها، لا تخفى عليه سبحانه خافية.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة لقمان»

* * *

---

(١) فإن قيل: لماذا لم يقل: «وما تدري نفس بأي وقتٍ تموت» وإنما قال: ﴿بأي أرضٍ تموت﴾ مع أن البحث عن وقت موت الإنسان؟ فالجواب: أن وجود الإنسان في مكانٍ ما في وُسع الإنسان واختياره، واعتقاد علم مكان موته أقرب، ومع ذلك لا يعرف الإنسان موطن موته، ولا المكان الذي ستكون منيّته فيه، فكيف يعرف وقت وفاته، هذا من باب أولى مستحيل، وإذا كانت وفاة إنسان في بلدٍ ما قدَّره الله له، جعل الله إليه حاجة في ذلك البلد، حتى يتم القضاء المبرم، والله تعالى أعلم.

obeikandl.com

سُورَةُ السَّجْدَة

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الحروف الهجائية المقطَّعة، للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، كما وضحناه في أول سورة البقرة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيل بمعنى المُنْزِل، أنزله عليك ربُّ العزة والجلال، أي هذا القرآن العظيم، لا شك أنه من عند الله، أنزله عليك يا محمد ربُّ العزة والجلال.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون يعني كفار مكة ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه؟ وقد ردَّ الله عليهم ذلك، حيث جيء بأم المنقطعة، إنكاراً له وتعجباً منه، لغاية ظهور بطلانه، واستحالة كونه مفترى، ثم أضرب عنه إلى بيان حقيقة ما أنكروه، فقال سبحانه ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بإضافة اسم

الرب إلى ضميره ﷺ تشريفاً له، ثم أيّد ذلك ببيان غايته فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن بيان غاية الشيء وحكمته، مما يقرّب وجود الشيء ويؤكّده، وقد كانت قريش أضل الناس، وأحوجهم إلى الهداية، بإرسال الرسل، حيث لم يُبعث إليهم رسول قبله، أو قبل زمانه، إذ كانوا أهل الفترة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي كي يهتدوا إلى الدين الحقِّ، والترجي معتبر من جهته ﷺ، أي لتنذرهم راجياً لاهتدائهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي ما لكم إذا جاوزتم رضاه، أحد ينصركم أو يشفع لكم ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ينجيكم ويخلّصكم من بأسه وعذابه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا تسمعون هذه المواعظ فتتذكرون بها فتؤمنون؟. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الأخبار الموهمة للتشبيه، من الصورة، واليد، والنزول، والاستواء على العرش، وما يجري مجراها، إن الحق فيها هو مذهب السلف أعني مذهب الصحابة والتابعين، ومن بَلَغه حديثٌ من هذه الأحاديث يجب عليه سبعة أمور: التقديسُ، ثم التصديقُ، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساكُ، ثم الكفُّ، ثم التسليمُ لأهل المعرفة. أما التقديسُ فأعني به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها، وأما التصديقُ فهو الإيمان بما قيل، وأنه حقٌّ على الوجه الذي قاله سبحانه وأراده، وأما الاعترافُ بالعجز فهو أن يُقرَّ بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من حرفته، وأمَّا السكوتُ فأن لا يسأل عن معناه، ويعلم أن سؤاله بدعة، وأن في خوضه مخاطرة في دينه، وأما الإمساك فأن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف

والتبديل، والزيادة فيه والنقصان، بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ، وأمَّا الكفُّ فأن يكفَّ عنه البحث والتفكر فيه، وأما التسليم لأهله فإن لا يعتقد أن ذلك خفيَ على الأنبياء والعلماء، كما قال الإمام أحمد: آيات الصفات وأحاديث الصفات، تُمرُّ كما جاءت، نؤمن بالآية والخبر، ونكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم علام الغيوب.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يدبر أمر الدنيا، وينزل ما دبَّره وقضاه، بأسباب سماوية، من الملائكة وغيرها، نازلة بآثارها وأحكامها إلى الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي يصعد ذلك الأمر إليه ليحكم فيه ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي برهة من الزمان، والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث، وحدوثها من الزمان وقيل: يدبر أمر الدنيا جميعاً إلى قيام الساعة، ثم يعرج الأمر كله إليه عند قيامها في يوم كان مقداره ألف سنة، وسئل عنها ابن عباس رضي الله عنه فقال: «أيام سمَّاها اللهُ تعالى، لا أدري ما هي! والله أعلم بمراده».

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الله عز وجل، باعتبار اتصافه بما ذُكر من الخلق، والاستواء والتدبير، أي ذلك العظيم الشأن ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي هو العالم للآخرة والدنيا، ولما هو غائب عن الخلق ومشاهد لهم، فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ على عباده، يدبِّر لهم شؤون الحياة.

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ أي أتقن وأحكم كلَّ مخلوقٍ خلقه، إذ ما من مخلوقٍ خلقه الله، إلاَّ وهو مرتَّبٌ على ما اقتضته الحكمةُ، وأوجبته المصلحةُ، وقيل: أحسن بمعنى ألهم، فالمعنى: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه، فيؤول إلى معنى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١) ﴿ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴾ على وجه بديع تحار العقول في فهمه، حيث برأ آدم عليه السلام، على فطرةٍ عجيبة، منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواءً إجمالياً، فخلقه من تراب مجبول بالماء حتى صار طيناً، ويبس هذا الطين فصار صلصالاً له رنَّةٌ وصوت، ثم نفخ فيه الروح فصار بشراً سوياً.

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ﴾ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ ﴾ أي ذريته ﴿ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ أي حقير وضعيف، وهو المنيُّ والممتهنُ، السّلالةُ: النَّسلُ والولدُ، سُمّيت به لأنها تنسل منه أي تنفصل.

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩ ﴾ .

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾ أي عدَّله بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويرها على ما ينبغي ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ ﴾ إضافة الروح إليه سبحانه إضافة تشريفٍ، كبيت الله، والنصارى يفترون على الله الكذب، ويقولون: بأن عيسى روح الله، فهو ابن الله، ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله، أي ونفخ فيه

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

من روحه التي هي ملكه اختص بها علام الغيوب ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي خلق لمنفعتكم تلك الحواس، لتعرفوا أنها مع كونها في أنفسها نِعَماً جليلة، وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية، الفائضة عليكم، وتشكروها بأن تصرفوا كلاً منها إلى ما خُلق له، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بيان لكفرهم بتلك النعم، على أن القلة بمعنى النفي، أي لا تشكرون ربكم على نعمه الجليلة، التي تتقلّبون فيها.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي منكرو البعث، والقائل «أبيُّ بن خَلَف» رأسُ الطغيان، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي صرنا تراباً وغبنا فيها بالدفن ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾؟ استفهام إنكاري أي أنبعث ويُجدَّد خلقنا؟ ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾ انتقال إلى بيان ما هو أبلغ، وهو كفرهم بلقاء ربهم، وبجميع ما يكون في العاقبة.

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ قُلْ بياناً للحق، وردّاً على زعمهم الباطل: يقبض مَلَك الموت أرواحكم، ويستوفي نفوسكم، هو وأعوانه فلا يترك منكم أحداً، لا كما تزعمون أن الموت من الأحوال الطبيعية العارضة للحيوان، بموجب الجبلِّيّة، أي يقبض أرواحكم ملك الموت ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي بقبض أرواحكم، قال مجاهد: جُعلت له الأرض مثل الطشت يتناول منها حيث يشاء، وقيل: ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الآمر، وهذا وجه الجمع بين هذه الآية،

وبين قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾[1] ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد سامع ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون. ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا﴾ أو جنس المجرمين الذين ارتكبوا صنوف الجرائم في الدنيا ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي مطرقو رؤوسهم من الحياء والخزي، عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا ﴿رَبَّنَآ﴾ أي يقولون يا ربَّنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي صرنا ممن يبصر ويسمع، وكنا من قبلُ عمياً وصماً، لا ندرك شيئاً ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما تقتضيه أوامرك الإلٰهية، ونعبدك ولا نشرك بك أحداً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبق لنا شك بما شاهدنا، وكلّ ذلك طمعاً للإجابة إلى ما سألوه من الرجعة، وأنّىٰ لهم ذلك؟.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أي لو تعلقت مشيئتنا بأن نعطي كلَّ نفس ما تهتدي به إلى الإيمان، والعمل الصالح، لفعلنا ﴿لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ لأعطيناها إياه في الدنيا، التي هي دار الكسب إلى الإيمان، والعمل الصالح، لكنْ

(١) لا تعارض بين هذه الآيات ولا منافاة، فالله تبارك وتعالى هو المتوفّي، ومَلَك الموت «عزرائيل» يتولى قبضها بنفسه، ومعه أعوانه يساعدونه في الأمر، فصحت الإضافاتُ كلها إلى الله سبحانه، وإلى ملك الموت، وإلى أعوانه.

لم نعطهم ذلك، لمَّا علمنا منهم اختيار الكفر(١) ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي سبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأملأن جهنمَ بالعصاة المجرمين من الجنِّ والإنس جميعاً، وفي تخصيص الإنس والجن، إشارة إلى أنه عصم ملائكته من العصيان، ودخول النيران.

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ الباء للإيذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد، بل هو بسبب نسيانهم الدار الآخرة، وعدم العمل لها، أي ذوقوا هذا العذاب المخزي الأليم في دار الجحيم، بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي تركناكم في العذاب، ترك المنسيِّ بالمرة ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير للتأكيد والتشديد، أي وذوقوا العذاب الخالد الدائم، بسبب ما كنتم تعملونه من فنون الكفر والمعاصي، وتكذيبكم بآيات الله.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي إنما يصدّق بآياتنا، ويعتقد بها، المؤمنون الصادقون المتقون، لا الكفرة المجرمون ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ أي وُعظوا بها ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي سقطوا على وجوههم سجداً خوفاً من عذاب الله

(١) توضيح معنى الآية الكريمة: لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا، ولكنَّ ذلك ينافي حكمتنا، لأنَّا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار، ولذلك لم نجبر أحداً على الإيمان!!.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي نزهوه عن كل ما لا يليق به، متلبسين بحمده تعالى على نعمائه، التي أجلها الهداية بإيتاء الآيات، والتوفيق للاهتداء بها ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ أي والحال هم خاضعون لجلال الله تعالى، لا يستكبرون عن السجود والتسبيح، والتحميد عن ابن عمر قال: «كان رسول الله يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته، في غير وقت الصلاة»(١) وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدة، فسجد لها، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلتي أُمر ابنُ آدم السجدة، فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فليَ النَّارُ»(٢).

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي ترتفع، وتتنحّىٰ ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي عن الفُرُش ومواضع النوم، وهم المتهجدون بالليل، وقال عطاء: هم الذين يصلُّون العشاء والفجر في جماعة، بدليل قوله ﷺ: «من صلَّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلَّى الليل كله»(٣) وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل، لما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»(٤) ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي داعين له تعالى ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير والحسنات.

---

(١) أخرجه البخاري ٢/٤٥٩ ومسلم رقم ٥٧٥ باب سجود التلاوة.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٨١ في كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٦٥٦ في المساجد وأبو داود رقم ٥٥٥ في الصلاة.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصوم.

﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾.

﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ ﴾ من النفوس، لا مَلَك مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسل، فضلاً عمن عداهم ﴿ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم ﴾ أي لأولئك المتقين الصالحين ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ ممَّا تَقرُّبه أعينهم ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ روى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، وَلا خطر على قلب بشر، واقرؤوا ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي لَهُمْ﴾» الآية[(١)].

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ ﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ ﴾؟ أي أبعد ظهور ما بينهما من التَّبايُن، يُتوهَّم كونُ المؤمن الذي حُكِيت أوصافه الفاضلة، كالفاسق[(٢)] الذي حكيت أوصافه القبيحة؟ ﴿ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴾ أي لا يتساوون عند الله في الشرف والمثوبة، والمآل والجزاء.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ ﴾.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ تفصيلٌ لمراتب

---

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٢٣٠ في بدء الخلق ومسلم رقم ٢٨٢٤ وانظر جامع الأصول ١٠/ ٤٩٤.

(٢) المراد بالفاسق هنا: الكافر، لأنه تعالى قابل به المؤمن، وأخبر أيضاً أنه يُخلَّد في النار، ولا يستحقُّ التخليد فيها إلا الكافر: ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النارُ﴾ وأمَّا الفسقة من المؤمنين العصاة، فلا يخلّدون في نار الجحيم، ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾؟ المراد بالمجرمين الكفار لمقابلتهم بالمسلمين.

الفريقين في الآخرة، وإضافة الجنة إلى المأوى، لأنها المأوى الحقيقي، وقيل: هي جنة من الجنات تأوي إليها أرواح الشهداء ﴿نُزُلًا﴾ أي ثواباً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة في الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي منزلهم ومسكنهم ﴿النَّارُ﴾ نار جهنم، مكان الجنة للمؤمنين ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ اللفظ عبارة عن الخلود فيها، فلا خروج ولا عودة في الحقيقة، وكلمة «في» للدلالة على أنهم مستقرون فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم إهانة لهم، وزيادة في غيظهم ذوقوا عذاب جهنم الدائم ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بعذاب النار على الاستمرار في الدنيا، وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر، إذِ التكذيبُ يُقابل الإيمانَ.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدنيا، وهو ما عُوقبوا به من القتل، والأسر، والقحط ونحو ذلك، وقيل: العذابُ الأدنى عذابُ القبر ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب الآخرة، لأنه شديد ومديد، بخلاف عذاب الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل الذين يشاهدون ممن بقي منهم، يتوبون عن الكفر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾؟ استفهام إنكاري أي هو أظلم من كل ظالم، لأنه عرف الحقَّ ثم صدَّ عنه ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كل من اتصف بالإجرام، وإن هانت جريمته ﴿ مُنتَقِمُونَ ﴾ فكيف ممن هو أظلم؟.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي التوراة، وعبر عنها باسم الجنس ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان، والتنبيه على أن إيتاءَه لرسول الله ﷺ كإيتائه لموسى عليه السلام، واختار من بين الرسل «موسى» لقربه، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للاستدلال، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته، وأمَّا النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام، فتمسَّك بالمجمع عليه ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ أي من لقاء الكتاب الذي هو الفرقان، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن﴾ والمعنى: إنا آتيناك من الكتاب، مثل ما آتيناه لموسى، فلا تكن في شك من أنك لقيتَ مثله ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه لموسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي هداية لبني إسرائيل من الضلالة والجهالة.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾ أي جعلنا منهم قادة يقتدى بهم في فعل الخيرات، ويُهتدى بهم إلى طريق الحق ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ أي بأمرنا إياهم بذلك، وبتوفيقنا لهم إلى الطاعة ﴿ لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ أي لمَّا صبروا جعلناهم أئمة، والمراد صبرُهم على مشاقِّ الطاعات، ومقاساة الشدائد في نصرة

الدين ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر، والمعنى: كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناك هدىً لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المؤمنين والمشركين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيميز بين المحقِّ وبين المبطل ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؟ أي أولم يبين الله لأهل مكة؟ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي كثرة من أهلكناهم من القرون الماضية، مثل: عاد، وثمود، وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي يمرون في متاجرهم على ديارهم، ويشاهدون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكر ﴿لَـَٔايَٰتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؟ هذه الآيات، سماع تدبر وتفكر؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾؟ أي التي جُرز نباتها، أي قطع ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ بالماء من تلك الأرض ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من ذلك الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتبن، والعصف، والورق، وبعض الحبوب المخصوصة

بها ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحبوب التي يقتات بها الإنسان والثمار ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؟ أي ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك؟ ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى؟.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ كان المسلمون يقولون: إن الله تعالى سيفتح لنا على المشركين، وكان أهل مكة إذا سمعوه يقولون تكذيباً واستهزاءً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي النصر علينا أي في أيّ وقت يكون؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ في أن الله ينصركم علينا؟.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩﴾.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم، وتحقيقاً للحق ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يوم القيامة، وهو يوم الفصل، والعدولُ عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم، للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسأل عنه، لكونه أمراً بيناً، وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع ذلك الإيمان، كأنه قيل لا تستعجلوا، فكأني بكم قد آمنتم، فلم ينفعكم إيمانكم في ذلك اليوم العصيب؟.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك حوادث الزمان، رُوي عن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ تَنْزِيلُ الكِتَابِ﴾ و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنْسَانِ﴾»(١) وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٨٧٩ في الجمعة، وأبو داود رقم ١٠٧٤ في الصلاة.

كـان لا ينـام حتـى يقـرأ: ﴿الٓـم تَنْـزِيـلُ الكِتَـابِ﴾ و ﴿تَبَـارَكَ الَّـذِي بِيَـدِهُ المُلْكُ﴾[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة»

* * *

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

obeikandl.com